المدرسة والطالب

والوطن

للدكتور تشارلس وطسن
رئيس الجامعة الاميركية بالقاهرة

سيداتي ، سادتي : تحت هذا العنوان ، وفي هذا الموضوع المتسع الجوانب ، اريد ان ابحث في ايجاز المرحلة الدقيقة التي تجتازها الامة المصرية اليوم ، ونصيب التربية من هذه المرحلة ، ولا سيما ما قد تستطيع الجامعة الاميركية ان تسديه من الخدمات الجليلة ، المشبعة بروح الصداقة والوداد في هذا السبيل ، وان تك هذه الخدمات متواضعة في نوعها ، محصورة في مداها

ولنستهل البحث اولاً بقياس الحياة القومية الجديدة التي تمخضت عنها سيادة البلاد واستقلالها ، ولنتساءل عن الفروق الناجمة عن هذه الحياة الاستقلالية ، وما اصبح الآن بفضلها مستطاعاً مما كان قبلها وبغيرها مستحيلاً . ان واضع هذا السؤال يمكن ان يكون احد اثنين : اولهما ذلكم الذي لا يعنيه من هذه الحالة سوى اشباع مآربه الذاتية وما يجنيه هو في هذا الموقف من النفع المادي . ذلكم الذي لا يجول بخاطره سوى الوظائف التي تفتح ابوابها امامه ، وما ينجم عنها من زيادة في المرتب ونقص في ساعات العمل . هذا هو الاناني الذي يدور محور تفكيره حول هذا الهدف : ترى ما الذي يعود عليّ أنا من هذا الاستقلال ؟ واذا اتخذنا البلدان الاخرى مقياساً ، بما في ذلك بلادنا — ولايات اميركا المتحدة — فان عدد الذين يقتحمون ابواب الحكومة لنيل ما يستطيعون من المغانم ليس بالقليل ، وليس ثمة ما يصدهم عن اشباع مطامعهم الاشعبية سوى سخط الرأي العام . بيد ان هناك والحمد لله ذلك النوع الثاني من ابناء الامة ، الغيور على وطنه ، الذي يتجه تفكيره شطر طريق مباين للنوع الاول . ذلك هو الرجل الذي يسائل نفسه : ما هي التبعات الجديدة التي تترتب على هذا الاستقلال ، فاتحمل تبعتها ؟ وأنى لي ان اقوم بنصيبي منها ؟ وللاجابة عن هذا السؤال بروح الاخلاص المنزه عن الغرض ، خليق بنا أن نحلل الموقف وان نبدي ما عنّ لنا من الملاحظات الآتية :

يلوح لي بادىء ذي بدء أن فوز مصر باستقلالها التام لن يحدث في نظام حكومتها تغيراً يذكر ، وهذا امر يظهر في غاية الغرابة ، اذا قابلنا بين مصر اليوم وولايات اميركا المتحدة في بدء

عهدها بالاستقلال. كانت تلك البلاد في ذلك الحين تتألف من ثلاث عشرة ولاية مستقلة بعضها عن بعض، وكان عليها انشاء حكومة مركزية تضمها جميعاً تحت لواء واحد. وكان عليها أن تضع دستوراً، وتنشىء مجلساً نيابياً، وتنتخب رئيساً للجمهورية، وتشيد قاعدة في واشنطون، وتؤلف وزارة، وتنظم غير ذلك من المصالح المتشابكة التي تسير دفة الاعمال في الحكومة الاتحادية الجديدة. بيد ان مصر لحسن الحظ أسعد حالاً، وحالتها من هذه الناحية اقل تعقداً ومهمتها اخف عبئاً. فهي تتمتع بدستور راسخ البنيان، ولها مليك شاب يبشر من طالعه بعصر مديد، ولها مجلس نيابي قائم باعباء وظيفته خير قيام، ولها وزارات حنكتها الايام واكسبتها دراية وخبرة منذ عهد بعيد. وليس ثمة ما تحتاج البلاد اليه من الانظمة الجديدة مما يستحق الذكر، وليس هنالك ما يدعو لاعادة التنسيق في اي مرفق من هذه المرافق. وبلاد بلغت لظمها هذه المنزلة السامية، تبشر بنجاح اكيد في حياتها المستقلة الجديدة

وعلى الرغم من ذلك فليس هنالك من يستطيع اغفال الحقيقة الواقعة، وهي ان هذا الاستقلال حادث تاريخي مشهود، له أسمى منزلة في حياة الامة المصرية. ويظهر شأن هذه الصفحة الجديدة في تاريخ وادي النيل الخالد جليًّا للعيان، اذا ما شبها مصر بشاب يغادر لاول مرة منزله وأسرته، وينزل في ساحة العمل مغامراً طلباً للرزق، وامامه شبح المسئولية ماثل، فلا ينفأ مناجياً نفسه: هل ترى يكون نصيبي الخيبة أم النجاح؟ غير أن ابتهاجه بحياته الجديدة وحماسته المتقدة لا تقللان عن خشيته من أعباء المسؤلية، ذلك لانه بدأ يشعر حقًّا بأنه هو المسيطر على نفسه، المالك لزمامه. ولا يبرح هذا الشعور أن يقوّي في نفسه العزيمة الصادقة فيتقبل التضحية بصدر رحيب أملاً في النجاح مغامراً في لجة هذه الحياة الجديدة التي أخذ يخوض غمارها

لقد عدت الى مصر منذ شهرين بعد غيبة قصيرة في أميركا، فأذهلني ما رأيت من دلائل الروح الجديدة متفشية في طول البلاد وعرضها، وعلى الاخص في الناشئة. وأول ما شاهدته من هذه الروح كان في طلبة هذا المعهد حيث سمعت جمعهم ينشد في حماسة وقوة النشيد الوطني، وشهدت بعد ذلك في دور السينما تصفيقاً حاداً كلما خفق العلم المصري على ساريات المباني والقصور. هذه المظاهر وأمثالها تنبىء بالشعور القومي الذي يمكن تسخيره للعمل والخدمة

ولا مندحة عن أن تفتقر هذه الروح الجديدة التي تبلغ فيها الحماسة والوطنية مبلغهما الى التوجيه والارشاد. لقد سبقت الاشارة الى ذلك الشعور الاناني الذي يتخذ الاستقلال سلماً يصعد به الى مآربه الذاتية. ولا يفوتنا أن ننوه كذلك بأن الوطني الملتهب حماسة مع بعده عن الانانية، ونزاهة مقصده، في حاجة ملحة الى هذا التوجيه وذاك الارشاد، والا استحالت وطنيته هتافات وخطباً جوفاء ومظاهرات بغير عمل، وبدت في ثوب قومي قشيب يبهر ظاهره

الأبصار ، وتجلت فيه مظاهر الأبهة والعظمة والادعاء ، وقد تتخذ الروح العسكرية لوازم الفخامة لمجرد الزينة لا أداة للذود عن حياض الوطن

على أن هذه الروح الجديدة يمكن توجيهها الى القيام بأجل الخدمات نحو الأمة كمكافحة الامراض الفتاكة التي حدت برجال القرعة العسكرية في سنة ١٩٣٤ — ٣٥ أن يرفضوا ٨٢ ٪ من الذين تقدموا للفرز العسكري ، وكتوفير الماء النقي في كل قرية مصرية ، وانشاء المدارس القروية الكافية للقضاء على الامية في المناطق الزراعية ، وتأسيس المصانع إنقاذاً للبلاد من خطر الشبان العاطلين الذين لا يستطيعون الكسب من الزراعة ، وتطهير المدن من مآوي الرذيلة ، وازدحام المنازل الحقيرة بساكنيها ، مع خلوها من الوسائل الصحية ، وانشاء الملاعب الفسيحة للاطفال والناشئين حتى يشب رجال الغد اصحاء بدنيًّا وخلقيًّا ، واخلاء الشوارع من المتسولين والاحداث المهملين وغرس المبادىء التي تعمل على تنمية روح التعاون والتفاهم وحسن النية بين الامم ، ولا يخفى ما ينبغي أن يكون لمصر في هذا من النصيب الوافر لوقوعها على مفترق الطرق العالمية

كل هذا يحتاج إلى توجيه وإرشاد وزعامة من الطراز الاول ، في جميع مرافق الحياة القومية من اجتماعية ، واقتصادية وقضائية ، وتعليمية ، وسياسية . ونظراً لاهمية هذه المرحلة الجديدة التي تقطعها مصر في تاريخها الحديث ، فانها على استعداد تام ان توجه الهدف الى اسمى الاغراض وأعلى المثل ، طالما كان زعماؤها في كافة المرافق الحيوية يتصفون بالنزاهة ، والبعد عن الغرض. وهنا يبدو ما للمدرسة من الشأن العظيم . وكيف يتسنى لنا ان نبحث عن زعماء الغد خارج دور التعليم ؟ اسمحوا لي أولاً أن أشدد النبرة على الصفات التي يجب توافرها في الزعامة ، ومنها تحكمون بأنفسكم على الاغراض التي نحاول بلوغها بما نزاوله من الاعمال في هذه الجامعة

الصفة الاولى التي يجب توافرها في الزعامة هي التماسك القومي وامتزاج الزعيم بالكتلة الوطنية لحماً ودماً . لان الزعيم على النقيض من «الدكتاتور» الذي لا يحتاج الى التعرف الى هذه الكتلة أو العطف عليها ، إذ انه لا يعير التفاته الى شعورها ، ولان همه منصب على إملاء إرادته على الشعب بغير إشفاق او رحمة . وليس الزعيم الحق كذلك ، لانه يستوي مع الشعب إن لم يكن يحكم النسب في العاطفة والاماني . أضرب لذلك مثلاً بصموئيل غومبرز الذي أصبح من اكبر زعماء العمال في أميركا . كان ذلك الزعيم في الاصل شغوفاً بالموسيقى ، وكان يمكن أن يكون كوكباً لامعاً من كواكب الأوبرا ، ولكنه رأى بعينيه العمال العاطلين يتضورون جوعاً بسبب إنشاء الآلات ، وسمع أحد عمال النسيج يهتف صارخاً : «رباه خذ حياتي بيدك ، زوجي واولادي في حاجة الى الخبز وأنا عاطل عن العمل» فألقى الغناء والموسيقى جانباً ، ووقف نفسه على خدمة العمال والعمل بينهم وهذا غاندي ، أتم دروسه الجامعية ، وكان من كبار رجال القانون ضليعاً من مهنته ، ولكنه

آثر ان يزج بنفسه بين أفقر طبقات الجنود وبذلك مهد لذاته السبيل الى الزعامة الحقة للملايين من شعبه . ومما يؤسف له ان المدرسة كثيراً ما تعجز عن بث هذا النوع من الزعامة في نفوس طلبتها ، وكثيراً ما نجد الطلبة يساورهم الغرور والزهو وغيرها من الصفات التي تفقدهم شروط الزعامة ، وتعمي ابصارهم عن رؤية حاجات المجتمع ، ومطالب ابناء جلدتهم

اناني هذا المعهد نعني كل العناية بهذه الناحية ، ونحاول أن نخلق في نفوس الطلبة روح العطف على الانسانية بفضل الرحلات والزيارات التي يقومون بها الى المستشفيات والملاجيء والقرى والأحياء المتواضعة في المدينة والسجون والمصانع ، ومن أهم أغراض هذه الزيارات العطف على السواد الأعظم من أبناء الأمة ، وهو من أجل صفات الزعامة

ومن الصفات التي لا ريب في وجوب توافرها في الزعيم الذكاء . ولسنا نعني بهذه الصفة الالمام بما في بطون الكتب من المعارف ، أنما نعني بها مجموعة الصفات اللازمة لحل المسائل العامة وتحليل المواقف وتقدير عواملها . فاذا ما خلت هذه الصفة من زعيم كان مثله مثل جاهل يقوده جاهل مثله . وهذا النوع من الذكاء يتضمن ضرباً من حب الاستطلاع الصحيح . قيل عن المخترع الشهير توماس اديسون انهُ ولد وعلامة الاستفهام تختلج على شفتيه . فقد كان منذ نعومة اظفاره يمطر والده وابلاً من الاسئلة ، وكلما قال والده لا أدري اجابهُ الطفل اديسون ، ولم لا تدري ؟ وقد بلغت هذه الصفة فيه مبلغاً حملهُ على الاختلاف الى احواض السفن فيتدفق من فمه سيل الاسئلة ، حتى اقترح اولو الامر هناك ان يعين له موظف خاص للاجابة عن اسئلته انقاذاً للموقف ، وتوفيراً لاوقات المهندسين والصناع

وكان العالم الطبيعي « أجَسي » في حب الاستطلاع مضرب الامثال ، حتى أن حديقته ومنزله وحجرته الخاصة وجيوبه ، كانت على الدوام مكدسة بالنماذج التي يراد فحصها . وحدث مرة انهُ كان يتناول العشاء مع ضيوفه ، فأثيرت مناقشة حادة حول الفرق بين نوعين من الضفادع ، فما كان منهُ الا أن مد يده الى جيبه وأخرج منه ضفدعاً تعززاً لرأيه ، فأدهش الحاضرين . ولا نعد حضرات والدي الطلبة وأولياء امورهم أننا نستطيع ان نبث في الناشئين في هذه الجامعة هذه الدرجة من حب الاستطلاع ، أنما نعد اننا نستطيع ان نوقظ فيهم شديد الرغبة والشغف بالعلم حتى تدفعهم هذه الرغبة الى تجاوز الكتب المدرسية ، وتغريهم بحب البحث والتنقيب في بطون الاسفار في المكتبات العامة ، والتغلغل بعد ذلك في عالم الحقيقة

والزعامة والطاقة صنوان لا يفترقان . ومن الخطأ الشائع ان الناس يفكرون في القوى الجثمانية كلما ذكروا كلمة طاقة ، في حين ان هذا التعبير لا قيمة له ، اذا لم يكن منصبًا على صفة من صفات العقل ، وكانت هذه من أبرز الصفات التي اشتهر بها ابراهام لنكولن من رؤساء

ولايات اميركا المتحدة وقد قيل عنهُ وهو شاب انه اشتغل مساعداً لمهندس مساحة ، فسار على قدميه عشرين ميلاً لدرس ما يتطلبهُ هذا العمل . ولما ان وجد انهُ لم يدرّ في عمله الجديد بعد هذا الجهد ، لم يثنِ ذلك من عزمه ، بل وصل ليله بنهاره ستة اسابيع حتى اشفق عليه جيرانه ، وحذروه من نتيجة هذا الاجهاد ، الذي ينذر حياته بالخطر . غير ان ذلك لم يردعهُ بل ظل مجاهداً حتى ملك ناصية عمله . وكذلك عندما عقد النية على الاشتغال بالمحاماة ، فانهُ اخذ ينقب في اكداس من الاوراق عن نسخة قديمة الاثر ، مبعثرة الاوراق ، كانت تحوي مذكرات قانونية ذات شأن ، حتى عثر عليها ولمّ شعثها وانكب على قراءتها واستيعابها حتى ألمّ بما فيها مع انهُ كان في ذلك الحين يستعين على تكاليف الحياة من متجر يستغرق كثيراً من وقته الذهبي

على ان السؤال الذي تتطلب جوابه — هل في استطاعة المدرسة ان تربي هذه الصفة في نفوس طلبتها ؟ والاجابة عن هذا السؤال نعتقد ان هذا من المستطاع ، ان لم يكن في كل الاحوال ففي اكثرها . ولا نعتقد ان ذلك يتأتى عن طريق حشو الذهن وكثرة الاستذكار ، وتكديس المعلومات ، ولكنهُ يأتي عن طريق المناقشة ، وبخلق جو مدرسي تسود فيه اليقظة ، ويتوافر فيه النشاط العقلي . ومصر المستقلة في حاجة الى هذا النوع من الزعامة الذي يتوافر فيه معين لا ينضب من هذه الطاقة ، التي يتطلبها هذا المناج من مرافق الاصلاح في شتى النواحي

ومن أسمى صفات الزعامة سمو الخلق . وهنا ننتقل من الكلام عن الصور الذهنية الى الصور الخلقية . فالزعيم يجب ان يكون موضعاً لثقة الناس به ، لما جبل عليه من الاستقامة ورصانة الخلق . وهذه الصفة تفسر لنا النجاح الذي يصيبهُ الزعماء المتواضعون في كفاياتهم ، المتوسطون في مواهبهم العقلية . فهؤلاء لو لم يتخلقوا بكريم الصفات لما كانوا موضع ثقة الناس فيهم ولما وفقوا الى ذلك النجاح

كان هربرت هوفر من رؤساء الولايات المتحدة باميركا ، في خلال الحرب العظمى . وقبل ان يتقلد الرآسة ، مضطلعاً بادارة التموين فكان يسيل بين أنامله ملايين الريالات ، حتى انهُ كان يكفي ان تكتب التحاويل المالية الى هربرت هوفر وكفى . وقد بلغت هذه التحاويل زهاء مليونين واربعمائة ريال في الشهر الواحد ومع ذلك فانهُ لم يخامر احداً خلجة من الشك في طهر ذمته . فهل تدهش بعد ذلك اذا فاز برآسة الجمهورية ؟ أليست هذه الصفة المحمودة وهذا الاخلاص الصافي وتلك الامانة النقية هي التي جعلت لغاندي في الهند هذه السلطة التي لا نجد لها بين الملايين من شبيه ؟

هناك بين الاسماء التي يتألق نجمها في سماء الاحسان ، وعمل الخير في انكلترا اسم « جورج مولر » فقد انشأ خمسة ملاجيء كبيرة للايتام بلغ مجموع من دخلها عشرين الف نفس . وقد بلغ من شهرة هذه الملاجيء ان تدفقت سيول التبرعات والهبات والوصايا على خزينتها ، ومع ذلك فقد كانت تضحيته واستقامته وامانته ابعد من ان يمس درهماً منها . وقد بلغت هذه الاموال مليونا

ونصف مليون من الجنيهات ومع ذلك فقد مات ووراءه ثروة ضئيلة لا تتجاوز المائة والسبعين جنيهاً . فهل تدهشون اذا اتسم بين الانجليز بزعيم المحسنين ؟

ان مصر المستقلة تطمح الى مكافحة الفقر والمرض والجهل بفضل زعمائها الاجتماعيين . وهؤلاء لا بد أن تتوافر فيهم صفة استقامة الخلق . وكثيراً ما يوجه الناس الى معهدنا بعض الانتقادات بدعوى اننا نفسح في مناهجنا مجالاً واسعاً لدرس الاخلاق والاكثار من الاندية والجماعات والرحلات ، غير ان لدينا ما يحمل على الاعتقاد بأن هذه كلها في مقدمة ما ينبغي ان تعنى به معاهد التعليم اذا شاءت مصر المستقلة ان تبلغ أمانيها القومية

وأخيراً اذكر تلك الصفة العظيمة التي تتطلبها الزعامة ألا وهي سعة الاطلاع واتزان الحكم . فمن السهل جداً ان يكون المرء متصفاً بالتعصب ، اي انه يركز رأيه في نقطة ضيقة محدودة ، غير أن الزعيم الحق هو ذلكم الرجل الذي يحيط بالمسألة من جميع نواحيها وينظر الى الموقف نظرة فاحصة عامة في مجموعه . ولو ان موقع مصر الجغرافي في مكان الافغانستان او في منطقة بحيرة تشاد في افريقيا بعيداً عن الامم الاخرى ، لما احتاجت الى اتساع الافق فيما يتعلق باتصالها بالامم الاخرى . ولكن مصر لا يتسنى لها ان تعيش في منأى عن غيرها من الامم ولا يمكن ان يرضى شعبها لها ان تكون كذلك . واذاً فلا بد لها من الاتصال بغيرها من الدول وهذه العلاقات الدولية من شأنها ان تزيد الحياة رغداً وغنى ورفاهية اذا احسن وضعها في الموضع اللائق بها . ولا يتاح لها هذا الا بسعة الاطلاع ورزانة التفكير وهنا نلقي سؤالاً . كيف يتسنى تربية هذه الخلق في الناشئة ؟

في هذه الكلية سبع عشرة جنسية يتلقى طلبتها العلم معاً متعاونين ويتعلم الواحد منهم كيف يحترم جنسية أخيه . غير ان السواد الاعظم من الطلبة هم من المصريين إذ تبلغ نسبتهم اربعة وسبعين ٪ في المائة من المجموع . ومن ذلك يتبين أن المجال هنا فسيح للقومية والاممية على السواء ، استعداداً للزعامة التي ننشدها في مصر . ونقول في الختام إن الاستقلال الصحيح لا يتم بالاتفاقات السياسية ، كالمعاهدة مع بريطانيا ، أو اتفاق مونترو ، او دخول مصر في جمعية الامم . وهل يمكن ان يكون الاستقلال الصحيح منحة لشعب من الشعوب ؟ أليس الاستقلال هدفاً تبلغه الامة بالتعب والكد ؟ ألا يكون تدعيم هذا الاستقلال في كل ناحية من مرافق الحياة؟ اذا كان هذا صحيحاً فان تحقيق استقلال مصر التام لا يأتي بحوادث سنة ١٩٣٧ السياسية وحدها ، ولكن بجهود الجبارة التي تتوالى بعد هذا التاريخ ، تلك الجهود التي ترفع مصر الى ذروة المجد القومي في حياتها الاقتصادية ، حياتها الاجتماعية ، وحياتها العقلية والثقافية ، كما في حياتها السياسية . والى هذا المرمى نسعى جاهدين ، وفي سبيل تحقيق هذه الصفات في الناشئة نوجه جهودنا جادين